الرحلة إلى هونج كونج

هونج كونج أعلى ضجيجاً وضوضاء في العالم

كان في ذهني أن أزور هونج كونج وليس الصين، ربما لأنه طالما ارتبط اسم هذه الجزيرة ببريطانيا قبل أن تعود إلى الصين الأم، وعندما زرتها لم أشعر بأنني أزور الصين على الرغم من المظاهر الصينية الطاغية. والعجيب أن هونج كونج، كانت مؤجرة (تخيلوا بلداً أو جزيرة كاملة بأرضها وشعبها تؤجر من بلد إلى بلد آخر)، وكانت مدة العقد تنتهي في عام ١٩٩٧م، وانتهى العقد واستعادتها الصين، وهونج كونج موزعة بين الصين والإنجليز، فاللغة الإنجليزية شائعة كثيراً، ولكنها بدأت تفقد سيطرتها وهيمنتها إلاّ في بعض المواقع، التي يتشبث بها الإنجليز بمهارة كبرى، سأذكرها فيما بعد.

حجزت في أحد فنادق هونج كونج عن طريق الإنترنت، فإذا بالفندق يقع في الجزء الصاخب من المدينة، التي اكتشفت فيما بعد أنها تنقسم إلى قسمين: قسم راق وقسم شعبي جداً. والقسم الشعبي هو الذي يمثل روح هونج كونج الحقيقية، فضجيجها لا حدود له، فهذا الجزء

أسميته مدينة الصداع، عاصمة الضجيج الصوتي والضجيج الضوئي، ففي هونج كونج لوحات مضاءة تكفي عشر مدن أو أكثر. وفوق التلوث الصوتي والتلوث الضوئي، فلا بد أن في المدينة تلوثاً في الهواء، لكثرة السيارات والحافلات. قد تقف أمام إشارة فيمر من أمامك عشر حافلات، وكلها مليئة في بعض الأوقات.

وأردت أن يكون للزيارة بُعدٌ علمي أكاديمي بالإضافة إلى السياحة، فطلبت أن ألتقي أحد أساتذة جامعتها (العالمية بمستواها الأكاديمي والعلمي)، وهو الدكتور بيتر سوارسكي[1] Peter Swarisky رئيس برنامج الدراسات الأمريكية في جامعة هونج كونج، ولم يستجب للوهلة الأولى، وأوضح أنه لا جديد في البرنامج غير ما هو متوافر في الإنترنت، ولكني ألححت عليه فأعطاني موعداً في يوم الإثنين الساعة الثانية عشرة وخمس وأربعين دقيقة.

وعندما حان موعد لقائي مع الدكتور بيتر في جامعة هونج كونج انتقلت بِعَبّارة إلى الشق الآخر من الجزيرة، فوجدت كأنني انتقلت من عالم إلى عالم. ففي العالم الجديد تختلف المباني وتختلف الشوارع فلا ضجيج ولا صخب، بل مبان راقية وأسواق باذخة، وخضرة طاغية (إن صح التعبير)، وكانت مباني الجامعة على قمة جبل جميلة ورائعة، فسرت في طرقات الجامعة حتى وصلت إلى مبنى

(١) متخصص في الأدب الأمريكي وكذلك في الثقافة الأمريكية الشعبية والأفلام الأمريكية والدراسات الاجتماعية، له العديد من المؤلفات عن الولايات المتحدة الأمريكية ومنها كتابه (كل الطرق تؤدي إلى المدينة الأمريكية ٢٠٠٧م).

كلية الآداب، حيث الدراسات الأمريكية. كنت أعتقد أنني أستطيع أن أكتب تحت أي ظرف وفي أي جو، ولكن ضجيج هونج كونج غلبني فامتنعت عن الكتابة.

وتمتاز هونج كونج بكثرة المشردين أو النائمين على الأرصفة، وهي من الظواهر الموجودة في كثير من مدن العالم، كما أن قارئي البخت والمنجمين يكثرون في هونج كونج كثرة صاعقة، وزبائنهم كثر. ويمكن للإنسان أن يتساءل: لماذا السعي إلى هؤلاء لمعرفة الغيب أو المستقبل؟ هل ثمة دراسات اجتماعية لسبب كثرة هؤلاء وكثرة زبائنهم؟ هل يعاني الناس في هونج كونج عدم الاستقرار النفسي والروحي والاجتماعي، حتى يحتاجون إلى معرفة المستقبل؟

وأما مطاعم هونج كونج فحالما تدخل المطعم يقدمون لك شراباً بين الحمرة والصفرة ربما هو الشاي الصيني، بينما في اليابان يقدمون شاياً مشابهًا، ولكن يقدمونه حسب الطلب. ووجدت أن في اليابان مكائن لبيع الشاي الحار، وفي زيارة لأحد المعاهد في اليابان لم يكن لديهم فراشون أو أحد يصنع الشاي؛ فأحضر لي المضيف علبة شاي حار، وكان طعمه عجيباً فلم أكن أتصور أن الشاي يباع معلباً كما تباع القهوة في أكواب.

وهونج كونج مدينة الليل والنهار، تبدأ المتاجر فيها متأخرة ليس قبل الساعة العاشرة، وتبقى تعمل حتى وقت متأخر، بل إن أسواق هونج كونج تصبح مضاعفة بعد الساعة الخامسة عصراً، حيث تنصب الأعمدة وتغطى بأشرعة، لأن المنطقة قريبة من الاستواء، ولديهم أمطار غزيرة

جداً، وتصبح هناك مئات من المنصات والمظلات، ويصبح السوق أربعة صفوف من المتاجر، أو ربما أكثر بالإضافة إلى المتاجر الأصلية في الأبنية والعمارات.

وتمتاز متاجر ما بعد الخامسة[1] بأنها في الغالب هي البضائع الأرخص ثمناً والمقلدة، وربما أحياناً البضائع الأصلية بأسعار خيالية. كما أن البضائع المقلدة في السوق درجات وليست كلها معروضة؛ بل يعرضون التقليد الأرخص وإن كنت تريد تقليداً أرقى فإنهم يعدونك بعد وقت معين أو يخرجون حقيبة من مكان سري، وكأن هناك ما يمنع تداول البضائع المقلدة، وفي ظني أن السلطات لا تريد أن تلقي القبض على هؤلاء، فهي تعرفهم وتعرف ما لديهم وإن كانت الشركات العالمية دائمة الشكوى من البضائع المقلدة.

زيارة جامعة هونج كونج:

عرفت أن لدى جامعة هونج كونج برنامجاً للدراسات الأمريكية، ويرأس البرنامج أستاذ من أصل كندى هو بيتر سوارسكي فاطلعت على سيرته العلمية من خلال الإنترنت، وكذلك برناج الدراسات الأمريكية، وبررت الزيارة بأنني أرأس وحدة دراسات العالم الغربي في مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية بالرياض، كما أنني مهتم بالاستشراق ومن ثم بدراسة الغرب.

---

(١) ويوجد في تايبيه مثل هذه الأسواق التي تسمى الأسواق الليلية، تستمر حتى ما بعد منتصف الليل، وربما أكثر طالما وجد الزبائن فالتجار موجودون-.

وكان مكتب سوارسكي في الطابق الثامن من كلية الآداب، فكنت هناك قبل الموعد بدقائق، وحينما حان الموعد خرج الدكتور بيتر من مكتبه فوجدني بالباب، وقال: أنت مازن مطبقاني، فقلت: نعم أنا هو، فرحب بي وجلسنا قليلاً ثم انطلقنا إلى مطعم مجاور بصحبة إحدى تلميذات الدكتور بيتر، وهي حاصلة على الماجستير في الدراسات الأمريكية من معهد كنيدي للدراسات الأمريكية في برلين. ويضم المعهد أكبر مكتبة للدراسات الأمريكية خارج أمريكا، ودار حديث طويل حول الدراسات الأمريكية، وتعجب أنه ليس عندنا في المملكة أو في العالم العربي دراسات أمريكية، فأخبرته عن مراكز الدراسات الأمريكية في الجامعة الأمريكية في القاهرة وفي بيروت بمنح من الأمير الوليد بن طلال، وأضفت: ولكنهم أمريكيون يدرسون الأمريكيين!! وأخبرته عن تجربتي في الدعوة إلى إنشاء هذه الدراسات والدراسات الإقليمية في السعودية، وكم مرة صحت بأعلى صوتي، وصرخت وناشدت وطالبت، ولكنى حتى الآن لا مجيب. وأتعجب دائماً لماذا لا تنشأ هذه الدراسات في بلادنا مع أننا نستعين بخبراء من كل حدب وصوب، ولا نسعى إلى تكوين خبراء من بلادنا في هذه المجالات [1].

وزودني في آخر اللقاء ببعض المطبوعات عن برنامجهم والمواد التي يدرسونها، وينفذ البرنامج من خلال ٢٤ ساعة معتمدة موزعة كما يأتي:

---

(١) أنشأ معهد الدراسات الدبلوماسية التابع لوزارة الخارجية مركزاً للدراسات الأمريكية ولكنه ما زال في بداية الطريق.

١- أسس الدراسات الأمريكية، الجزء الأول، ست ساعات.
٢- أسس الدراسات الأمريكية الجزء الثاني.
٣- حلقة بحث متقدمة في الدراسات الأمريكية للمستوى الثالث، ست ساعات.
٤- حلقة بحث في الدراسات الأمريكية لطلاب المستوى الثالث، ست ساعات.

إضافة إلى أربع وعشرين ساعة آخرى يختارها الطالب من مجموعة من المواد منها الآتي:

- الطريق إلى الثقافة الأمريكية، ست ساعات.
- المدينة الأمريكية، ست ساعات.
- التعامل المالي مع أمريكا. ست ساعات.
- نظرات حول أمريكا. ست ساعات.
- عن التلفزيون الأمريكي والثقافة الأمريكية. ست ساعات.

ومن المواد التي تدرس واحدة بعنوان: (المجتمع الاستهلاكي) ويدرسها الباحثة التي كانت مع الدكتور بيتر في أثناء لقائي به، وقد أوضحت لها أنّ النزعة الاستهلاكية قديمة في المجتمع الأمريكي، وقد كتب عنها إريك فروم الفيلسوف وعالم الاجتماع الأمريكي الألماني الأصل Erich Fromm كتابين، وهذان الكتابان هما (الإنسان وحيداً) و(المجتمع العاقل) Man for Himself و Sane Society . وسألت الدكتور بيتر عن كتاب يصلح للترجمة في الدراسات الأمريكية، وأنني يمكن أن

أقوم بترجمته وحدي أو بالتعاون مع غيري، وأشار إلى كتاب له سيصدر فيما بعد.

وعندما أخبرني عن كثرة حضوره المؤتمرات أخبرته كذلك عن اهتمامي بالمؤتمرات، حتى إنني حضرت ثمانية مؤتمرات في عام واحد، فقال: لا أستطيع أن أصدق أنك تستطيع حضور كل هذا العدد من المؤتمرات، وأميل إلى عدم التصديق. وأضفت وكان ستة من هذه المؤتمرات التي حضرتها قدمت فيها بحوثاً.

وإلى جانب مركز الدراسات الأمريكية كان هناك قسم الدراسات اليابانية يحتل معظم هذا الطابق أو يحظى بنصيب الأسد من الكلية، ومما يؤكد ذلك أن اللوحات الإعلانية عن الدراسات اليابانية تملأ جدران الطابق، ومن المعلومات المعلّقة على الجدران معلومة عن باحث صيني نال درجة الدكتواره من جامعة أكسفورد ببريطانيا، وعنوان رسالته هو «الشركات اليابانية وصلتها بالثقافة اليابانية». وقد منحت الدرجة من قسم علم الإنسان الاجتماعي، واسم الباحث (دكسون ونج هيونج واه) Dixon Wang heung Wah (البريطانيون لا يفعلونها بنا وحدنا، بل غيرنا من الشعوب أيضاً، فهذا باحث صيني من هونج كونج أراد أن يدرس اليابان فأغروه ووفروا له سبل البحث العلمي حتى قبل الانتقال للعمل لديهم، وكان من أنشطته أن قدم لهم دراسة معمّقة عن الشركات اليابانية من الداخل، حيث يقول الباحث: «لقد عملت في العديد من الشركات اليابانية، ومنها شركات لبيع الأغذية واللحوم، وتنقلت في العديد من الأقسام». وأضفت في مذكراتي حينها: لعلي

أحصل على معلومات أوسع فيما بعد. ونسيت دفتري وما كتبت، ولعل غيري ممن يطلع على هذه المذكرات أو الرحلات أن يسعى إلى معرفة المزيد عن الشركات اليابانية ودورها في نشر الثقافة اليابانية. ولكني تذكرت أنني رأيت أن شركة تويوتا لصناعة السيارات لها مؤسسة باسمها تعنى بالبحوث الاجتماعية والسياسية والثقافية والفكرية، ولها أنشطة في ماليزيا وفي دول الجوار الياباني. فأين شركاتنا من النشاط الثقافي الحقيقي؟

لفت انتباهي في جامعة هونج كونج وفي الجامعات الغربية عموماً عناية هذه الجامعات بخريجيها، فتؤسس لهم رابطة وتتواصل معهم وتعتز بهم وتفخر كما يفخرون هم بها ويعتزون، ولمّا كان خريجو هذه الجامعة من أنحاء العالم المختلفة فقد أقاموا احتفالاً عالمياً للخريجين في الفترة من ٢-٤ نوفمبر ٢٠٠٦م. وعنوان الحفل هو:

Hong Kong University Alumni Convention

وعقد الاجتماع أو التجمع في مركز شنجهاي الدولي، وعدد المتحدثين في الحفل أربعة عشر متحدثاً، بلغ عدد الحضور ثلاثين شخصية، منهم من وصل رتبة الأستاذية، ومنهم من حصل على البكالوريوس فقط، وقد وصلوا إلى مناصب عليا، من مديرين ورؤساء شركات ورؤساء مجالس إدارة أو حتى وزراء.

ولفت انتباهي أن الجامعة نشيطة، فوجدت إعلانين أحدهما عن ندوة بعنوان: «العنف في هونج كونج»، والثاني: «محاضرة لعميد كلية العلوم

بعنوان: «فهم الكون في القرن الواحد والعشرين» والعميد متخصص في علم الفلك. والتخصص في الفلك أمر أبدع فيه المسلمون يوماً ما حينما كانوا يتطلعون إلى السماء وينظرون في الكون والكواكب.[1]

وكان ثمة نشاط ثالث بعنوان: «ندوة عن تطور الطلبة من قبل طلاب الجامعة». وكان ذلك يوم ٢٨ نوفمبر ٢٠٠٦م، وهناك إعلان عن إنشاء مركز التطوير والموارد للطلاب، وهذا المركز جاء لدمج عدد من الهيئات المتخصصة في شؤون الطلاب.

وفي أثناء تجوالي في الجامعة وجدت نشرة بعنوان: «حوار» تناولت في مقالتها الافتتاحية العام الجديد وترحيب نائب المستشار أو رئيس الجامعة بالطلاب الجدد. وقد قال في كلمته: إن جامعة هونج كونج لديها روابط وعلاقات بأكثر من أربعمائة جامعة حول العالم، وبرنامج تبادل الطلاب يضم أكثر من مائة وخمسين جامعة في عشرين دولة. وركز المستشار أو الرئيس على العلاقات الدولية والمواطنة العولمية، وأن الجامعات تضم عدداً كبيراً من الطلاب الأجانب بلغت نسبتهم خمسة عشر في المائة (١٥٪).

وتحدث وزير العدل في الحفل (بداية العام الدراسي) مناشداً الطلاب أن تكون طموحاتهم كبيرة (ليس الحصول على وظيفة وسد

---

(١) ولذلك أعجبني ابني هاشم ابن الخمس سنوات (يوم ٥ شعبان ١٤٣٠هـ أتم السنة الخامسة) حفظ قصة المجموعة الشمسية، وأعدت أمه القصة له في برنامج بور بوينت Power Point) وانطلق أمام زملائه في أثناء العام الدراسي (لم يكن أكمل الخامسة) فقص عليهم قصة المجموعة الشمسية وكواكبها المختلفة وصفة كل كوكب وعدد الأقمار التي تدور في فلكه وترتيبه في المجموعة الشمسية وأبرز خصائص الكوكب من حيث الحجم والحرارة.

الرمق)، وأن يفكروا بعمق، ونبه إلى خطورة الإنترنت، وألا يكتفوا بالتلقي، بل عليهم تحليل ما يحصلون عليه من معلومات.

كما حضرت في الجامعة الاحتفال بمرور خمسين سنة على تأسيس دار نشر جامعة هونج كونج، حيث تأسست الدار عام ١٩٥٦م. ولاحظت وجود عدد كبير من البريطانيين يديرون هذه المؤسسة. وأُلقِيَتْ عدة كلمات من شخصيات ومسؤولين صينيين من أصل صيني وصينيين من أصل بريطاني، وكان الاحتفال باللغة الإنجليزية؛ حيث إن لغة التعليم الأساس هي اللغة الإنجليزية، وكانت المطبوعات المعروضة مطبوعات باللغة الإنجليزية. ولابد أن عودة هونج كونج إلى الصين جعلتهم يختارون قضايا صينية وشخصيات صينية للكتابة عنها والتأليف.

وقد لاحظت أن دور نشر الجامعات الكبرى في الغرب وفي هونج كونج تقوم بدور كبير في نشر المعرفة، كما أنها ناجحة تجارياً، فليست عالة على الجامعة ينفق عليها لتخسر وتخسر، أو لتطبع كتباً لا لتوزع تجارياً بل لتهدى لمن لا يقرأها أو لمن يضعها زينة في مكتباته. وكنت أمر على مبنى ضخم لدار نشر جامعة أكسفورد التي تطبع كتبها في العديد من المدن في العالم، ولها إدارة مستقلة تسير بمعايير علمية صارمة، فلا تطبع مجاملة ولا توزع مجاملة. حتى إننا في عالمنا العربي لم نسمع بدار نشر جامعية تنافس دور النشر التجارية. وبعد ذلك تشتكي الجامعات عندنا من ضعف التمويل وقلة الموارد، وكأن أحداً يمنعهم من أن يوسعوا مواردهم. فقد أنشأت كثير من الجامعات الغربية أقساماً للاستثمار، وشجعت الطلاب على أن يعملوا في هذه الأقسام. وقد قرأت في أحد

المنتديات عن طالب سعودي يترأس فريق الاستثمار في جامعته. وقد نزلت في فندق في مدينة نيويورك، فعرفت أن الجامعة تملك أسهماً في ذلك الفندق.

ولهونج كونج مطار عالمي بنته الحكومة البريطانية التي كانت تستأجر الجزيرة قبل مغادرتها، وأخبرني سائق من أصل أفغاني أن البريطانيين أنشأوا هذا المطار وكل معداته وأدواته وآلاته وأجهزته مستوردة من بريطانيا، حتى يظل المطار بحاجة إلى الإنجليز لاستمرار تشغيله، وإلاّ فإنه في نظره لم تكن الجزيرة بحاجة إلى هذا المطار. ومهما كان رأي السائق ففي يوم مغادرتنا هونج كونج كانت رحلتنا تنطلق من البوابة ٦٥، وقبل الإقلاع بوقت قصير تغيرت البوابة إلى رقم ١، وكنت في مكان وكانت زوجتي في مكان آخر، ولم تعرف عن تغير البوابة فوجدنا صعوبة في الالتقاء والركض حتى نصل إلى البوابة الجديدة قبل السفر. وكان من الطريف أن خطوط كاثي باسيفك الصينية (من هونج كونج) تنقل عدداً كبيراً من الخادمات من إندونيسيا إلى المملكة عن طريق هونج كونج، وهذا ما يتعارف عليه في عالم الطيران الذي عملت فيه أكثر من ثنتي عشرة سنة أنه سرقة للركاب أو العمل بما يسمى الحرية السادسة، ولكن هذه شطارة شركات الطيران في جذب الركاب من كل أنحاء العالم.

استمتعت بهونج كونج على الرغم من الضجيج واستمتعت بأسواقها المفتوحة وبخاصة الأسواق الليلة،-تنتشر هذه الأسواق الليلية ليس في هونج كونج وحدها، بل هي متوافرة أيضاً في تايوان، وربما حتى في

الصين الشعبية أو الصين الأم- وإن لم يعجبني الطعام فيها، ولكني كنت أتعجب من السياح الأجانب من الأوروبيين والأمريكيين أو كما تسميهم زوجتي خديجة بني الأصفر، يجلسون في المقاهي الشعبية يأكلون الأطعمة البحرية ذات الروائح النفاذة، وهذه الأطعمة منها الضفادع والخنافس البحرية والقواقع وكل حشرات البحر بمناظر عجيبة لا تشجع على الأكل، ولكن سبحان مقسّم الأذواق.

وتنتشر في شوارع هونج كونج الشعبية متاجر الأعشاب والعطارة، وكأن الناس لا يستطيعون العيش دون هذه المواد، وتكاد هذه المتاجر تكون من سمات الحياة في الشرق الآسيوي في اليابان وفي ماليزيا وفي هونج كونج وفي الصين. وقد بلغتنا حمى هذه الأعشاب والعطارة في عالمنا العربي على الرغم من أن شعوب الأرض قاطبة تتوق إلى الأرض التي منها خلقنا نحب أعشابها ونباتاتها.

وفي نهاية الزيارة قررت ألا أعود سائحاً إلى هونج كونج أو لا أسكن في المنطقة التي سكنت فيها، وإنما سأختار الشاطئ الثاني من الجزيرة حيث الهدوء والطبيعة الخلابة.